العرب
الإثنين 2020/08/03
السنة 43 العدد 11778

خالدون عابرون للحدود بلا وطن ولا هوية

«الحرس القديم».. فيلم خيال علمي يسبر نزعة الإنسان في استشراف المستقبل

يبقى عنصر الزمن تحديّا للبشر ولطالما عبّرت عنه سينما الخيال العلمي من خلال رحلات عبر الزمن باتجاه المستقبل، أو باتجاه السعي لتغيير الأقدار والمصائر من خلال الانتقال إلى أزمنة أخرى. ما يولّد لدى المشاهد تساؤلات عديدة كما يمنحه في نفس الوقت مساحة واسعة للاكتشاف.

فتاة حسناء بقدرات خارقة

طاهر علوان
كاتب عراقي

في فيلم "الحرس القديم" للمخرجة غينا برنس بيثوود لن نرحل مع الشخصيات عبر الزمن ولن تتم عملية إيقاف الزمن ولا الرحيل إلى المستقبل، بل إننا سوف نكون مع شخصيات هي في حد ذاتها قاهرة للزمن ومن فصيلة الخالدين الذين لا يهلكون، وإذا أصيبوا فجراحهم سهلة الالتئام والشفاء.

وبسبب هذه القابلية الخرافية يلتقي أربعة أشخاص تقودهم أندي (الممثلة تشارليز ثيرون) التي بقيت في الأذهان عن دورها المميز في الجزء الأخير من فيلم "ماد ماكس" وأفلام أخرى.

ها نحن في المشهد الافتتاحي في مراكش بالمغرب، حيث يلتقي الفريق الذي لن يتورّع عن السفر إلى أقاصي الأرض لتنفيذ عمليات نوعية في مقابل المال. لننتقل إلى أفغانستان حيث يتم تعقّب جندية المارينز نيل (الممثلة كيكي لاين) التي يكتشف الفريق أنها تنتمي إلى فئة الخالدين، وبهذا يتم اختطافها من أفغانستان إلى فرنسا حيث يقيم الخالدون في منجم متروك منذ العشرات من السنين ولا أحد يعرف طريقه.

هكذا يتم تصميم هذه الدراما عبر خليط من المغامرة والحركة والعنف والجريمة، لتمتزج هذه المواصفات بنوع من الخيال العلمي من خلال فكرة عبور الزمن.

ها هي أندي الفاتنة، رشيقة الحركة، ذات القدرات القتالية الفريدة، تستعيد تاريخ مجيئها إلى الحياة إلى قرون خلت، إذ ليس مستغربا أنها كانت قد شاركت في الحروب الصليبية هي وصديقة لها قاتلت مع نابليون بونابرت.

أندي الإنسانية تقود دراما طويلة ولا نهاية لها في رحلة عابرة للقارات والدول، لكنّها وهي تتوّج انتصاراتها لا تعلم ماذا يخبئ لها القدر؟

الفتاة، وهي في أوج تحرّكاتها تكون مرصودة ومشخّصة من قبل عميل في الظل للمخابرات الأميركية، يعمل بالتنسيق مع شركة أدوية عملاقة لغرض القيام بأبحاث يتمّ من خلالها البحث في الجينات الوراثية للخالدين، ونقل أسرارها للبشر العاديين الذين تهلكهم الأوبئة والأمراض، وهو ما يدفع إلى اختراق المجموعة من خلال خيانة واحد منهم.

هي وشاية غير متوقعة يرتكبها بوكر (ماثياس شونيرتس) بأن دلّ على مكان اختباء المجموعة لتشتبك مع قوة خاصة مدرّبة، هدفها هو اقتياد المجموعة لغرض إجراء تجارب عليهم. الجانب الإنساني المرتبط بالشخصيات يعزّز البناء الدرامي المُتقن في هذا الفيلم، فبوكر وهو يستعرض محنته التي دفعته للوشاية بالمجموعة يتولّد لديه شعور بالوحدة، إذ أن أفراد الأسرة يشيخون أمامه فيما هو باق، ويموت أحباؤه بين يديه بينما هو باق. والهدف هنا إنهاء هذه الدائرة المغلقة من الديمومة القاسية، والتي يراها بوكر حلا لمعاناته ومعاناة أندي التي تربطه بها مودّة خاصة.

وترى أندي في ما فعله بوكر خيانة على الرغم من تبريراته، لكن هذه الطعنة تتزامن مع انتقالها هي إلى بداية النهاية، إذ تكون صدمتها وصدمة الجميع أن جراحها لم تعد تندمل بسهولة كما الخالدين.

في مشاهد الاقتتال الدامي الذي تبرع فيه أندي غالبا، مستخدمة سيفا ورصاصة في الجبين، تقدّم لنا صورة خيالية للخالدين فهم يتلقون الرصاص وتسيل دماؤهم وتتكسّر أعضاؤهم ثم ما يلبثون أن يعودوا كما كانوا، لكن الحبكة التي تم بثّها في وسط هذه النجاحات هي عدم التئام جرح أندي ما يشكّل صدمة للجميع.

> الفيلم يمزج بشكل فريد بين المغامرة والحركة والجريمة والعنف والخيال العلمي مستعرضا فكرة عبور الزمن

ولا بد هنا من وقفة وجدانية وإنسانية عميقة، تعبّر عنها نيل في مواجهة مع أندي أن هذا النوع من الصراعات لا أخلاقي، إذ أن أندي لم تتورّع عن قتل مسلّحين مجهولين في محراب الكنيسة، كي تتساءل نيل، هل سيستمر هذا القتل إلى ما لا نهاية؟

هنا سنكون أمام منعطف حاد، حيث تقرّر أندي صرف نيل عن الانضمام إلى المجموعة. ولكن الأقدار تشاء أن تكون نيل هي المنقذة عندما تغيّر موقفها وتعود لتكتشف أن المجموعة كلّها قد تم احتجازها في مركز أبحاث للأدوية يقوم بكل العمليات اللا أخلاقية من أجل الاستحواذ على السوق.

ونعود مرة أخرى إلى الأخلاقيات التي يقدّمها الفيلم، إذ يقول مدير شركة الأدوية إنه قتل عشرات الآلاف من فئران التجارب للوصول إلى علاجات، وها نحن مع مجموعة الخالدين الذين سوف يبقون يعطون قطعا من أجسادهم لغرض إجراء التجارب عليها.

لا شك أن المخرجة غينا برنس بيثوود نجحت في تقديم دراما فيلمية متماسكة وفيلم حركة مميز، كما نجحت في ذلك المزج بين الخيال العلمي والحركة والعنف وإبراز قضية الخالدين من وجهة نظر الأعمال العظيمة التي قاموا بها لإنقاذ حياة الآلاف من البشر عبر التاريخ، وهو ما تظن نيل أنه يشفع لهم أفعالهم في القتل من دون تردّد ولا رحمة.

نصف قرن من تاريخ فرنسا على لسان رجل بسيط

مسرحية "حياة جيرار الغرب" هي حكاية جيرار إيرودو، مواطن عادي، يرويها الممثل جيرار بوتيي عبر عرض مسرحي يطرح من خلاله واقع فرنسا المهمّشة من سبعينات القرن الماضي إلى الآن، في انتظار ماريان نائبة الشعب التي تزور بلدته النائية لمقابلة "أناس أصلاء".

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

"حياة جيرار الغرب" مسرحية مستمدة من رواية للكاتب فرنسوا بون بالعنوان نفسه، جمع فيها حكايات الفرنسيين الذين قابلهم في جولاته، وجعل بطلها رجلا بسيطا يدعى جيرار، يسرد محطات من حياته لأمان اللاجئ الإرتري، وهما في قبو منزله ببلدة متخيلة في محافظة فندي شرقيّ فرنسا.

ولفرنسوا بون تجربة في سرد حكايات أناس مغمورين، سبق أن نشرها في كتب مثل "رجل مريب" و"القمر في البئر"، اللذين استوحى أحداثهما وأبطالهما من أناس حقيقيين قابلهم وجالسهم واستمع إليهم. وقد عهد بعمله الأخير للممثل والمخرج المسرحي جيرار بوتيي.

في بيته إذن، أعدّ جيرار إيرودو العدّة لاستقبال ماريان نائبة من نوّاب الشعب، التي دعاها إلى مقابلة أناس حقيقيين، أصلاء، لتنصت إلى الذين لا تُسمع أصواتهم في الغالب.

في انتظارها وفي انتظار أقاربه وزملائه وأصدقائه الذين دعاهم للقائها في قاعة الأفراح، حيث أعدّ للجميع وليمة، يجلس جيرار في بيته مع أمان الذي احتضنته إحدى الجمعيات الإنسانية منذ مدة قصيرة، ويشرب على نخبه ويحكي.

يسرد دخوله معترك الحياة في سنّ مبكّرة إلى أن سُدّت في وجهه فرص العمل، فراح يتنقل بين "قطب التشغيل" والنقابات العمالية لعله يجد منهما يد عون تقيه البطالة.

من طفولته في حانة يديرها أحد أقربائه إلى عامل بالنيابة يتنقل من مؤسّسة إلى أخرى، ومن حادث شغل لعامل في مصنع للأغذية الزراعية وانتحاره بعد سنتين من البطالة إلى تسريح العمّال بعد غلق المصانع، إما لأنها أفلست، وإما لأن أصحابها فضلوا تحويلها إلى بلدان أخرى لرخص العمالة فيها، تتوالى الحكايات وتتناسل من رحم بعضها بعضا، فيها الطريف المسلي، وفيها الواقعيّ المؤلم والمأساوي، تروى بطريقة حكواتي متمرس (وبوتيي له تجربة في هذا المجال) دون استدرار شفقة، ولا رغبة ملحة في الإضحاك.

يسردها تقريبا كما هي، كما نقلها فرانسوا بون الذي لم يراجع معه بوتيي النص المُمسرح فقط، بل راجع معه أيضا مخطوط الرواية قبل نشرها، لأن أحداثها تجري في جهة لها عادات وتقاليد ولهجات لا يتقنها تماما، بخلاف بوتيي أصيل المنطقة، فكان النص الجديد أقرب إلى اللغة الشفوية.

ومن حكاية إلى أخرى، نكتشف بورتريه رجل ذي تجربة في الحياة لم تجر دائما كما يشتهي، مثلما نكتشف من خلاله ما في المجتمع من أشياء جميلة وأخرى قاسية، ونقف فوق ذلك على جانب من سردية فرنسا المهمّشة، في المناطق الفلاحية التي لم تجد حظها من التطوّر والنمو والحداثة بسبب قرارات سياسية متهافتة.

من سبعينات القرن الماضي إلى يومنا هذا، تطرح المسرحية رؤية عن عالم العمال في فرنسا الريفية على خشبة مسرح بلفيل الذي فتح أبوابه من جديد منذ مطلع يوليو الماضي، مع إقبال محدود تفرضه القواعد الصحية الصارمة.

وبأسلوب طريف، ولغة بسيطة يختلط فيها الكلام العادي بلهجة سكان منطقة فندي، يصوّر جيرار أفراح الناس وأتراحهم، ثم ينسرب خطابه شيئا فشيئا نحو المناطق المربكة، التي تمس حقائق اجتماعية، مأساوية في الغالب، وحتميات توجه مسار حيوات أناس بسطاء، لا يرومون غير العيش الكريم. وهذه من المفارقات المؤلمة في بلد غنيّ مثل فرنسا.

ما يلاحظ أن شخصية أمان اللاجئ الإرتري، الحاضرة في العرض الأول، اختفت، وعوض أن يسرد جيرار حكاياته لشخص لا يشاركه إلاّ شرب البيرة، ويكتفي بالاستماع دون أن يندّ منه صوت، اختار بوتيي منذ العرض الثاني أن يتوجه إلى الجمهور مباشرة. كما أن الخطاب يحيد أحيانا عن الواقع، حيث يستعرض البطل مشاكل حقيقية ولكن بتحليل رجل مثقف، لا يناسب تفكير عامل في الأرياف، ولا يمكن أن يصوغ أفكاره بنفس الأسلوب، ونفس العبارات.

> لفرنسوا بون تجربة في سرد حكايات أناس مغمورين، سبق أن نشرها في كتب مثل «رجل مريب» و«القمر في البئر»

أضف إلى ذلك أن ثمة خلطا بين المكان الذي ينتظر فيه جيرار وأمان المدعوين، هل هو بيته في تلك البلدة المتخيلة سان جان ديزْوا، أم في قاعة أفراحها. ثم إن فكرة النائبة التي ستأتي للقاء سكان البلدة، ليست قادحا مقنعا للحكايات، لاسيما أنها لم تأت، ولن تأتي، بل ليس في النص ما يشير إلى وجود من ينتظر قدومها، فما هي النهاية سوى ذريعة، كان يمكن الاستغناء عنها.

فكرة اللاجئ الإرتري جيدة لو استغلها الكاتب للمقارنة بين بؤس وبؤس، بين بؤس رجل أفريقي هرب من بلاده ربما لأسباب اقتصادية وأمنية وإنسانية، وبين بؤس رجل لا يعدم فرصة لتحسين وضعه في المدن المجاورة، ولا يمكن أن يقربه الجوع في دولة راعية، ولذلك فإن تركيز الكاتب على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أرياف بلاده منذ نصف قرن جعل الإرتري لا محل له من الإعراب، لاسيما أن دوره يقتصر على الاستماع، فقط.

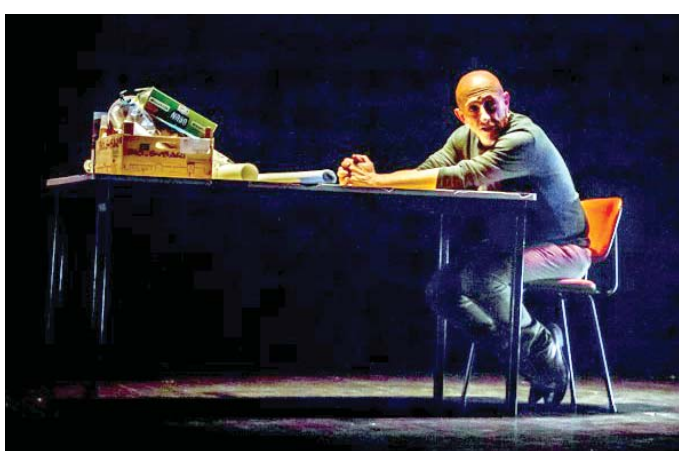

سردية لفرنسا المهمّشة

الرسم يتدهور

فاروق يوسف
كاتب عراقي

لماذا تدهور الرسم في العالم العربي؟ ليست الإجابة على ذلك السؤال صعبة. لقد تدهورت طرق التعليم وغاب معلمو الرسم الكبار بعد أن اختطفهم الموت.

لم تعد الشهادات العليا التي يحصل عليها بعض الطلاب الأكفاء قادرة على الدفع بجيل من معلمي الرسم الذين في إمكانهم أن يحافظوا على الحرفة. لقد ابتذلت الحرفة فصارت تُمارس في درجاتها الدنيا. لم يعد المعلم أفضل حالا من طلابه. تلك نتيجة مأساوية.

لو أن معاهد وكليات الرسم أغلقت لما ازداد الوضع سوءا. في وجودها فإننا نكون في مواجهة وضع استثنائي. خريجو تلك المعاهد والكليات هم رسامون فطريون لا يجيدون من الحرفة سوى ملامحها الخارجية.

لقد تم إفراغ المؤسسة التعليمية من محتواها الحقيقي منذ عقود. كما أن الحياة نفسها لم تعد منضبطة وصارمة بحيث تضع كل إنسان في المكان الذي يستحقه. وفي غمرة التحوّل الفوضوي الذي شهده الفن العالمي عبر العقود الماضية صار طلب الإتقان فائضا.

لم يعد الرسام هو ذلك الشخص القادر على تصوير المرئيات من حوله بل صار ذلك الشخص الذي يتحايل من أجل ألا يقع في ذلك الفخ.

أرجو أن لا يُفهم كلامي على أنه دعوة للعودة إلى الأسلوب التقليدي في الرسم، بل إنني أدعو إلى أن يكون الرسام متمكنا من أسس الرسم. كان بابلو بيكاسو واحدا من أكبر المخربين في تاريخ الرسم، غير أنه كان بين حين وآخر يثبت لنفسه وللآخرين أنه يرسم أفضل من رافائيل.

ينبغي أن يكون درس بيكاسو قائما في أذهاننا ونحن نرى تجارب رسامين صاروا يتفننون في استعمال المواد المختلفة كما لو أن أحدا لم يسبقهم إليها. وكما أرى فإن تعلم الرسم على أصوله ممكن إذا لم يختر الرسام المشي في الطريق الميسّرة وهي الطريق التي لا تهب شيئا مفاجئا أو سارا.

إذا أراد المرء أن يطوّر لغته ويسمّي من خلال اللعب بها الأشياء بأسماء جديدة فعليه أولا أن يتعلم أسس تلك اللغة. ما لم نبدأ بتلك الخطوة فإن الرسم في العالم العربي سيظل يتدهور.

للرسم لغته الخاصة